



عندما يلتقي الرئيسان الأميركي والروسي فليس هناك ما يمكن أن يطمئن شعب الدولة الثالثة التي يتحادثان بشأنها. للدولتين الكباريين تاريخ من السمعة الدموية تشهد عليه فيتنام وأفغانستان، واللائحة تطول بين حروب مباشرة وأخرى بالوكالة. وكان الهدف في لقاء نيويورك أن يتفق الاثنين على قواعد جديدة للعبتهما في سوريا، منطلقين من أنها كانت دائماً متفاهمين، غير أن فلاديمير بوتين برهن امتلاك استراتيجية واضحة عرف كيف يحافظ عليها ويقويها طوال أعوام، وهي مضادة تماماً لـ «اللا-استراتيجية» التي اتبّعها باراك أوباما ويواجه اليوم نتائجها.

ففي المجمل كان الروسي «شفافاً» في وقوفه إلى جانب نظام وحشي حتى لو تطلب الأمر إرسال قوات إلى الأرض، وكان الأميركي مخاطلاً في ادعاء دعم الشعب السوري وقد بلغت الكلبة أوجها في مسألة تدريب معارضين معتدلين.

لا مشكلة لبوتين مع إجرام بشار الأسد، وليس لـ «سفاح الشيشان» أن يلوم أي سفاح آخر على أعماله، حتى أن «القيصر» الروسي وجد سبيلاً غير متوقع لإثبات «عظمته» بدفع عواصم الغرب جمِيعاً إلى الانقلاب على مواقفها التي كانت تطالب بـ «رحيل الأسد» أو تتحيَّه.

فالجميع يقول الآن أن المشكلة هي إرهاب «داعش»، وأنه أصل الصراع السوري وبدينته، لذلك أمكن الروس أن يغيِّروا معادلات كثيرة في سوريا بينما تلك التي اعتمدها «التحالف الدولي ضد الإرهاب» بمحاربة «داعش» من دون محاربة النظام لتصبح «محاربة داعش بالتعاون مع الأسد».

وفي ذلك تطبيق حرفي واستجابة «عالمية» لم يتوقعها الأسد نفسه لاستراتيجته التي حولت قتله شعبه إلى «قضية إرهاب». وإذا ساهم ظهور «داعش» وتتدفق المهاجرين في زعزعة السياسات الأوروبية الداخلية لمكافحة الإرهاب والهجرة فقد صار

«الحل الروسي» أكثر نجاعةً بالنسبة إلى الأوروبيين من انتظار تردد الأميركي لا يبادر ولا يتبع لغيره أن يبادر.

بعدما جرّب الأميركيون إدارة الصراع السوري بمجموعة صار واضحاً أنها كانت متقدمة، فهم لم يشاؤوا التدخل ولم يشاؤوا أن يتدخل آخرون، متغاضين عن التدخل الإيراني، ها هم يحاولون الإيحاء بأن انتقال تلك الإدارة إلى الروس إنما تتم بإرادتهم وشروطهم، ولا يتطلب سوى شيء من التنسيق.

غير أن بوتين بذل الكثير لتأكيد أنه لم ولن يعمل وكيلًا للولايات المتحدة، فكلما زادت ضغطها – الإعلامي – لخلع الأسد أزداد بوتين تمسكاً به، وحتى عندما صار بعض زواره بإمكان التخلص من رأس النظام السوري فقد عنى أن ذلك يحصل عندما تنتفي حاجة موسكو إليه وتتجه بدليلاً منه وعندما يُعرض عليها الثمن المناسب.

هذا الثمن هو ما انتظره بوتين من واشنطن منذ أعوام، وما يفترض أن يكون سمع شيئاً عنه من أوباما. بالطبع، لدى الأخير ما يعرضه لكن «القيصر» لن يقنع بأي صفقة طالما أن الغرب أكّد حاجته إليه.

عشية لقاء أوباما – بوتين كان وزراء الدفاع الأساسيون في دول حلف الأطلسي لا تختلف عن تلك التي يطرحها السوري العادي: كيف نفسر تدخل روسيا في سوريا، هل هو لحماية مصالحها على الساحل، أم لدعم النظام في الصراع الداخلي، أم لمحاربة «داعش»، أم لتعزيز موقعها في أي مفاوضات مقبلة؟ فلا إله «ناتو» ولا أحد يعرف بالضبط ما هي نيات روسيا فيما كانت هذه تعلن إنشاء «تنسيق استخباري مع إيران والعراق والنظام السوري».

أي أن موسكو باشرت بإقامة حلفها الخاص للراغبين في مشاركتها «الحرب على داعش» التي باتت عنواناً لـ «تشريع» كل تدخل. وأنهى بوتين حملته дипломاسية بمقابلة مع قناة «سي بي إس» الأميركيّة وضع فيها الرأي العام الدولي أمام معادلة «إما الأسد أو داعش»، متيقناً بأن الخيار سيكون لمصلحة.

كيف يمكن العمل مع الأسد؟

سؤال تواجهه الإدارة الأميركيّة وكل الحكومات الغربية، لأنها تهجم بطموحات الشعب السوري بل لاكتناعها بأنها إزاء أمر واقع لم تشاُن توقعه، لكنه طرق أبوابها واقتتح حدودها عبر المهاجرين، وإزاء تطور لم تتحسب له بخيارات يمكن أن تساوم عليها، فلا هي ساعدت المعارضة السورية على بناء كيان تمثيلي متماسك، ولا قبلت بإسقاط النظام عسكرياً خشية البديل الإسلامي، ولا مكنت المعارضين المقاتلين من الحصول دون تسرب الإرهاب أو تسريبه إلى سوريا، ولا خاضت حرباً مجدهية على الإرهاب، وإذا عنت مجموعة السلبيات عجزها عن القرار لم يتبق لها سوى أن تحصد نتائج تهاونها وتقول نعم للدور الروسي.

غير أن «القبول» بالأسد لن يكون خياراً مطلقاً من دون شروط وضوابط. هذا ما يبدو أن واشنطن تريد حسمه مع موسكو.

فبالنسبة إلى محاربة الإرهاب اعتمد «التحالف الدولي» قاعدتين أساسيتين:

أولاً، التركيز على ضرب «داعش» من دون التعرّض لقوى الأسد.

ثانياً، استبعاد التعاون مع النظام لأسباب عدة منها علاقة بعض أجهزته بـ «داعش» والصفة الفئوية – المذهبية لقواته واستغلاله المؤكّد للحرب على الإرهاب كي يضرب معارضيه... ويتمثل الإشكال الحالي في أن بوتين يعتبر تعزيز نظام الأسد ممراً ضرورياً للقضاء على «داعش» متجاهلاً التداعيات على الصراع الداخلي، علماً أنه لم يسبق أن قال كلمة واحدة منصفة في حق الشعب السوري.

ولعل مجرد حديث الرئيسين الروسي والإيراني عن القبول الغربي بـ «بقاء الأسد» باعتباره انتصاراً لهم «مقابل التفرّغ لمحاربة الإرهاب» (حسن روحاني) يعني أن نظام القتلة بات هو الآخر موعوداً بالانتصار على الشعب السوري، بتزكية مريبة من رئيس إيراني «إصلاحي» (!) ومن رئيس روسي يعلن أن بلاده «لا تقدم المساعدة إلا لكيانات الحكومية المشروعة» والدليل، مثلاً، ما يفعله مع الانفصاليين في أوكرانيا.

وبالنسبة إلى «العملية الانتقالية» فإن واشنطن وحلفاءها يريدونها أن تكون:

أولاًً مستندة إلى حل سياسي حقيقي مبني على تنازلات جوهرية من جانب النظام بمعنى أن يتضح فيه مصير الأسد والصلاحيات الفعلية لهيئة الحكم الانتقالي، وأن تكون ثانياً متزامنة مع بدء العمليات العسكرية المباشرة لتحرير مناطق الشمال الشرقي من سيطرة «داعش»... وثمة فارق كبير هنا بين التصورين الغربي والروسي، فالأخير يريد الحصول على بداية تغيير إيجابي وجوهري في مسار الأزمة، وعلى تعاون فاعل من جانب السكان، لذا يسعى إلى إبقاء المطالبة بـ «رحيل الأسد» على الطاولة.

أما الثاني فلا يرى سوى النظام ولا يعرف غيره، ويفضّل منهج النظام وإيران (الإرهاب أولاً ثم البحث في حل سياسي) أي الجسم العسكري ضد المعارضة ثم الجسم - وليس الحل - السياسي.

وفيما حدد الروسي لنفسه هدفين هما:

1) «إنقاذ الدولة السورية» ردّاً على من يقول أنه جاء لـ «إنقاذ الأسد» و2) الاعتماد على «الجيش الشرعي النظامي» ردّاً على من يسأله كيف سيحارب «داعش»، وهو يبدو بهذين الشعرين كمن لا يعرف الواقع، فالجيش و«الدولة» يعانيا من كونهما أصبحا جهازين «أسديين» وليسَا «وطنيين».

لا مجال للأوهام، فالكلمة بين أياماً وبوتين هي بين متشابهين، وليس تواجهة بين الخير والشر. والفارق الضئيل بين أميركا وروسيا في سورية ليس مبدئياً، ولا يترجم بأن أميركا أقرب إلى الشعب أو بأن روسيا صانعة سلام، أي أنه لا يتبع الوثوق بأي منهما، فهما تبحثان عن «صفقة» توافق بين مصالحهما لمصلحتها، على رغم الصراع المفتوح بينهما. ثمة أسئلة ثلاثة يمكن أن توضح طبيعة تفكير الروسي وبواتن دوره، ولا يُتوقع أن يكون أوباما طرحة على بوتين:

1) اتفقنا معاً على تصفيية مخزون السلاح الكيماوي لدى الأسد، لكنه أخفى بعضه ويواصل استخدامه فهل تمنعه طالما أنك تفعل كل شيء وفقاً للقانون الدولي كما تقول.

2) البراميل المتفجرة هي الاختراع الروسي الأكثر فتكاً بالمدنيين فهل تريد وإذا أردت هل تستطيع إلزام الأسد بوقف استخدامها.

3) نحن متفقون على ضرورة الحل السياسي، فهل أنت مقتنع فعلاً بإمكان إنجازه بوجود الأسد، وهل تضمن أنه لن يخرّبه؟

المصادر: